الشرق بين التقليد والتقاليد

موضوعنا يدور على موقف الشرق بين التقليد والتقاليد .

وظاهر من بنية اللفظ أن التقليد والتقاليد - فى اللغة العربية - كلمتان من مادة واحدة . ولكنهما فى الاصطلاح المتفق عليه ، تدلان على معنيين متناقضين أو متقابلين . لأن العمل بالتقاليد معناه ملازمة القديم والمحافظة على السنن الموروثة ، والعمل بالتقليد معناه الأخذ بشىء جديد أو محاكاة شىء لم يسبق الأخذ به فى زمن قديم .

وقد سلك الشرق سبيلا وعرًا بين المحافظة على التقاليد والنزوع إلى التقليد ، أو بين التعلق بالموروثات والتعلق بالمبدعات الحديثة فى العصر الأخير .

فالتقاليد فى جميع الأمم قوة عظيمة السلطان راسخة الجذور ، وهى فى الشرق ، تزداد سلطانًا بما يضاف إليها من العوامل الاجتماعية والدينية الكثيرة ، ومن خصائص الأمم الشرقية التى لا تشاركها فيها جميع الأجناس .

فالشرق - سواء فيه السلالة العربية والسلالات السامية الأخرى - قريب الصلة بنظام القبيلة وعادات الفخر بالنسب

العريق والتراث الأصيل . ومن دأب هذه العادات أن تغرى أبناء الأمم بالنظر إلى الماضى ودوام التلفت إليه فى كل مرحلة من مراحل الانتقال .

واللغة العربية هى لغة الثقافة الشرقية على الإجمال ، وهى لغةالقرآن الكريم الذى يحرص المسلمون على كل آية من آياته ، وكل حرف من حروفه . فلا جرم تصطبغ الآداب العربية بصبغة المحافظة وتنفر من التجديد الذى توجس منه خيفة على لغة الكتاب الكريم .

ويضاف إلى ما تقدم أن الشرق فى العصور الوسطى قد جنح إلى الركود بعد التقدم ، واستكان إلى الضعف بعد القوة ، وليس من شأن الضعيف أن يخترع ويبتدع ويقدم على المجهول ، بل هو فى معظم حالاته متهيب لا يجهل ، قليل الحركة فى مجال العلم والعمل على السواء .

ثم ساد الشرق زمنًا من الأزمان طغيان العسف والاستبداد ، فسكن إلى التقاليد التى لا تحوجه إلى رأى ولا اجتهاد، وأخطأ فى فهمها برهة طويلة كما يخطئ كل جاهل ضعيف مسلوب العزم والمشيئة .

وطالت برهة التقاليد على الشرق حتى أحس على الرغم منه بضرورة التقليد ، أى ضرورة الأخذ بالجديد .

أحس بذلك حين اصطدم بقوة الحضارة الغربية الحديثة ولمس

مكان التفوق والرجحان من أبنائها .

ولم يزل شأن المغلوب أن يولع بمحاكاة الغالب كما قال ابن خلدون . ولا سيما المحاكاة التى لا تكلفه جهد التصرف الكثير ، ولا تتجاوز حدود النقل والاقتباس اليسير .

وقد تأتى هذه المحاكاة على درجات فى اليسر وسهولة المأخذ ، وهى على هذا الترتيب : محاكاة الأزياء والنظم الرسمية ، ثم محاكاة المعيشة الاجتماعية ، ثم محاكاة العلوم والصناعات والأعمالِ العامة ، ثم آخرها وأصعبها وهو المحاكاة فى الرأى والشعور والنظر إلى حقائق الأشياء .

فمضى الشرقيون شوطًا بعيدًا فى محاكاة الأزياء والنظم الاجتماعية ودراسة العلوم والصناعات ، وهم لا يزالون فى أسر التقاليد .

بل كان من أثر هذا التجديد فى الأشكال والمراسم أنه رجع بهم رجعة شديدة إلى التقاليد الموروثة فى بعض الأحوال ، لأنهم تخوّفوا منه الخطر على كيانهم القومى فأجفلوا منه معتصمين بماضيهم المجيد الذى لا يكفون عن الحنين إليه . وكان من جراء هذا الاضطراب الشديد بين الماضى والحاضر أن ظهر فيهم الجامدون المفرطون فى الجمود والمتطرفون الغالون فى التجديد . وليس فى استطاعة الجامد المتشبث أن يعمل عملا نافعا فى عصر الحركة والتقدم ، ولا فى استطاعة المتطرف أن يلغى الحدود ويحطم

القيود ويتغلب على الواقع المعزز بتراث المئات بل الألوف من السنين . فانفتح الطريق بين الفريقين المتناقضين لفريق ثالث هو أقدر على العمل وأقرب إلى الإنجاز ، لأنه ينظر إلى حقيقة الماضى ولا يستخف بها وينظر إلى حقيقة الحاضر ولا يغفل عنها . وذلك هو فريق الموفقين بين الأخذ بالجديد والمحافظة على التقاليد .

وامتزجت حركة هؤلاء الموفقين بالدين فى كل مكان وفى كل شعبة من شعب التفكير ، ولكنها مع هذا لم تخل من الصبغة القومية فى كل بيئة شرقية على حسب مزاجها الموروث .

ففى الهند ظهر غلام أحمد القادياني ، ومذهبه شبيه بمزاج البلاد التى نشأت فيها عقيدة تقمص الأرواح وانتقال الروح من جثمان إلى جثمان .

وفى إيران ظهر مرزا على محمد الشيرازى ، ومذهبه شبيه بمزاج البلاد التى نشأت فيها الباطنية وآمن فيها الناس من قديم الزمن بعقيدة الحلول وانتظار الإمام الذى يطهر الدنيا من الرجس والشر حيناً بعد حين .

وفى البلاد العربية ظهرت الدعوة الوهابية ومذهبها شبيه بمزاج البلاد التى ألفت خشونة العيش وأنكرت الرموز والإشارات وتعلم أبناؤها كراهة الألغاز والمعميات فى وضوح الصحراء .

وفى مصر ظهرت دعوة الإمام محمد عبده ومريديه ، ومذهبهم شبيه بمزاج البلاد التى تفسر القوانين الإلهية والنصوص الشرعية كما تفسر أوامر الحكومات ، أو هو مزاج مصر التى جاءها بالنبوءة فرعونها إخناتون . وتقابلت فيها شريعة الأرض وشريعة السماء .

وقد كان هذا الامتزاج بين طبائع الأمم وطبائع الحركات الإصلاحية أدل دليل على دبيب الحياة فيها ، وأن أرواح الشعوب قد نهضت للحركة والتقدم فى سبيل الاستقلال بالرأى والشعور ، ولولا أنها حركات حية طبيعية لما تنبهت فيها أرواح الشعوب والأجناس على هذه الوتيرة ، ولكانت تقليدًا متشابهًا لا تصرّف فيه .

وأعان الشرقيين على الاستقلال بالرأى والشعور أن الحضارة الغربية نفسها قد أحست بعيوبها وأكثرت من نقدها واستنهاض القرائح والنفوس إلى إصلاحها ، وأنها قد تشعبت أمام أبنائها وأبناء الأمم الأخرى شعبًا متفرقة فى الأدب والفن وأساليب الاجتماع . فعلم الشرقيون أن الحضارة الأوربية إذن ليست وحيا من السماء ولا ضربًا من التنزيل . وأنها لا تؤخذ بنصها جملة واحدة أو تنبذ بنصها جملة واحدة ، ولا ضير من تنقيحها وتعديلها على حسب الأقاليم والبيئات .

وهكذا ابتدأ دور الاستقلال بعد دور الفتنة بالقديم ودور الفتنة

بالجديد ، ومضى الشرق شوطًا غير قصير فى هذا الدور المبشر بالخير والارتقاء .

قلنا فى مفتتح المؤتمر اللغوى بالقاهرة عن الاتجاهات الحديثة فى الأدب العربى : « إننا نعبر الآن فترة البداية فى الاستقلال والثقة بالنفس ، وإن هذا الاستقلال يتجلى حينًا فى التحرر من القديم ويتجلى حينًا آخر فى التحرر من الجديد . فقد مضى زمان كان يكفى فيه أن يكون الشىء قديمًا ليحكى بلا تصرف ولا مراجعة ، ومضى بعده زمان كان يكفى فيه أن يكون الشىء أوربيًّا أو حديثًا ليحكى بلا تصرف ولا مراجعة ... ومن الناس اليوم من يوصف بالابتكار لأنه يستمسك بقديم كان وقفًا على الجامدين ، ومنهم من يوصف بالجمود والمحاكاة لأنه يعجل إلى الجديد على سنة التقليد .. » .

هذا الاستقلال هو ميزان الاعتدال بين التقليد والتقاليد ، وبين دعوة الموروثات ودعوة الخلق والابتداع .

فلا القديم كله نافع ولا البدع الجديدة كلها نافعة ، ولكن النفع كل النفع فى الحس الصادق والرأى الجرىء والعزيمة البصيرة ، لأنها تستبقى ما هو جدير بالبقاء من القديم والجديد على السواء .

وإذا احتفظ الشرق بملكة الاستقلال فى الحس والرأى فلا حاجة به إذن إلى الثورة على تقاليده الغالبة من أى نوع

كانت ، سواء منها تقاليد العقيدة وتقاليد الفنون والآداب .

لأن تقاليد العقيدة ليست من قبيل الدراسات العلمية التى تعرض على المعمل والمسبار فترة بعد فترة . وإنما هى ذخيرة شعورية تعمر الضمير فتعينه على مراس الحياة وتلهمه حسن المعاملة ومكارم الأخلاق . وعند الشرق فى هذه الذخيرة الشعورية ما يصلح للحياة العصرية ويقبل الحقائق العلمية . ولعله عصمة له من بعض مذاهب الماديين التى تقوض دعائم الآداب الإنسانية جميعًا باسم العلم وهى براء من العلم والعلم منها براء .

فلا حاجة بالشرق إلى الثورة على عقائده الصالحة التى خلصت من شوائب عصر الجمود وتهيأت للتوفيق بينها وبين حقائق الحياة فى العصر الحديث ، وليس التجرد من هذه العقائد بخير له من المحافظة عليها والتبصر فيها ، لأنه لن يستغنى عن الذخيرة الشعورية بحال من الأحوال ، ولن يخلقها من جديد إذا هو استغنى عنها فى نزوة من نزوات الجموح والضلال .

أما تقاليد الشرق فى عالم الآداب والفنون فكل ما عارض منها ملكة الاستقلال فى الحس والرأى فهو ذاهب لا محالة .. بل هو قد عبر نصف الطريق فى الذهاب إلى غير رجعة ، وما بقى من تقاليده موافقًا لاستقلاله فى حسه ورأيه فهو زينة الفن وحلية الأدب . لأن ثمرات القرائح والأذهان إنما تجمل بالتنوع بين

الشعوب والعصور ولا تفتأ كثمرات الربيع وازدهاره : أجمل ما تكون إذا غنيت فى رياضها وعلى أشجارها بتعدد الألوان والأشكال ، وتنوع النسمات والعطور .

وأيًا كانت عثرات الشرق فى سبيل الاستقلال بالحس والرأى فهى خير من سهولة مقادة للتقليد أو سهولة مقادة للتقاليد . لأن الرجل الذى يهتدى بقيادة السلف أو الخلف إنما يهتدى بعينى غيره وأذنيه . وخير له أن ينظر بعينى رأسه ويسمع بأذنيه ثم يتعثر ما شاء حتى يأنس العثار . لأن العثار ثمن غير كثير على نعمة السمع والبصر ، أو على نعمة الاستقلال بالحياة ، ولن يكون الشرق المستقل إلا خيرا من الشرق الذى قضى ردحًا من الدهر بين التقليد والتقاليد .